الوطن في كتابات جمعة الموفق، روايته عار أنموذجاً

د–سوف أبو القاسم الرحيبي
جامعة غريان / ليبيا

ملخص:

في هذا البحث قررنا دراسة الوطن في رواية عار لجمعة الموفق ذلك الكاتب الذي جمع بين الدرس السردي المعاصر ونبرة الحكاية القديمة التي تعتمد المباشرة والمقاربة والتوثيق، فجمع بين الواقعية النقدية والحكائية القديمة، وكأننا نقترب من حكايات ألف ليلة وليلة الأسطورية.

ولم نعتمد في بحثنا هذا على درس تقنيات السرد كما جاءت بها كتب السرد المعاصرة لسعيد يقطين أو حميد لحمداني، أو سواهما، بل كان جلّ تركيزنا في البحث في الموضوع – موضوع الوطن– وكيفية تجليه بصورته المحزنة والمؤلمة، ولذا كان هذا البحث متصلاً لا انفصال فيه، كاتصال المعاناة التي يعيشها الليبيون بسبب أوضاع اجتماعية واقتصادية فُرضتْ عليهم، وبسبب ما تملت به عقول البعض من الجهل والبغض والحمية المتخلفة والرجعية، فالسمة العامة في هذا البحث هو الموضوع، ليس غيره، الذي اختلط بوشائح الحمرة والسوداوية، حمرة الدم، وسوداوية الظلم.

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على الاستقراء الذي يبحث في قيم النصوص الدّالة على الوطن والمكان دون سواها، بغية الوصول إلى الحقيقة كما أرادها الكاتب –كاتب الرواية– لتنجلّي نتائج البحث وما توصل إليه.

summary:

In this research, we decided to study the homeland in the novel Shame by Juma al-Muwaffaq, that writer who combined the contemporary narrative lesson with the tone of the old tale that relies on directness, approach, and documentation, so he combined the critical realism with the old anecdotal, as if we were approaching the legendary tales of One Thousand and One Nights.

In the research, we did not rely on the study of narration techniques as presented in the contemporary books of Sidr by Saeed Yaqteen or Hamid Hamdani, or others. Rather, most of our focus was on the topic - the topic of the homeland - and how it was manifested

in its sad and painful image, and therefore this research was connected and inseparable. As a connection to the suffering experienced by the Libyans because of the social and economic conditions imposed on them, and because of the ignorance, hatred, backwardness and reactionary diet that filled the minds of some, the general feature in this research is the subject, and nothing else, which is mixed with the shades of redness and blackness, the redness of blood, and the blackness of injustice.

In our research, we relied on extrapolation, which examines the values of the texts that indicate the homeland and the place alone, in order to reach the truth as the writer wanted it - the writer of the novel - so that the results of the research and its findings become clear.

تقديم:

لقد أصبح الصراع بين الوطن ومغتصبيه هو العلامة البارزة لتاريخ الأوطان، فكانت المأساة الظلم هو الظاهر والغالبُ على بقية العلامات، والشعر مذ ظهر وهو مرافق وفي وقتٍ مبكر رفيقاً للإنسان؛ يعبّر عن مقاومته الدائبة لهذه المأساة، تعبيراً ملحمياً أو ذاتياً يحيط بجملة من الطقوس الاجتماعية والظروف السياسية الصانعة له. فبدأ شعور الفرد متجهاً إلى الرفض والتمرد والخروج من دائرة العلاقات الاجتماعية السياسية الظالمة في المجتمع، أيّاً كان ذلك المجتمع والهروب من الكبت إلى عالم يتَّسِم بالبراءة والفطرية، ليصنع عالماً له مفرداته ولغته الخاصة ويتعامل مع الأشياء الخارجية تعاملاً ذاتياً، حيث تبدو هنا رومانسية الموقف هي التعبير الأكثر أهمية، إذ هي الباعث الأول على الثورة؛ صورة جديدة ومطلقة للإنسان، وهي تربط هذا على نحو مميز بعالم مثالي، ومجتمع إنساني مثالي. إذ يبدو الإنسان الرومانسي وللمرة الأولى كَمَنْ يتولَّى خلْق ذاته[1].

ويمثل الوطن ركناً مهماً في كتابات جمعة الموفق ونقطة مهمة، جعلته يخالف المعتاد في الكتابة السردية، إذ عاش الواقع بكلّ تفاصيله المؤلمة والمحزنة والمؤسفة، وهو يفترض

1-ينظر: سلوى سامي الملا، الإبداع والتوتر النفسي، دار المعارف، القاهرة، 1972م، ص:27.

صوغ العبارة السرديّة من منطلق الوطن المكلوم، وطن تديره مجاميع لا علاقة لها به؛ لتسير به نحو الهاوية، لقد قدّم لنا الموفق الوطن في صورته الحقيقية صورة الظلم، والتشريد، والتهجير، والقتل، والاغتصاب، والتهديد، فالعلاقة فيما يبدو لنا علاقة وطيدة بين الأدب والوطن، فالهم الوطني قيمة أدبية راقية تشعر الكاتب بالعالم المأساوي الحزين.

وهي الفكرة نفسها التي تناوَلْتها الشاعرة نازك الملائكة في معرض ردّها على السؤال: ما علاقة الأدب بالوطنية؟ فقالت: الأدب غلام أشقر أزرق العينين رائع الجمال، وصفة التي تهمنا في هذا السياق هي كونه حساساً محباً، تسحره المشاعر الإنسانية، ويبكي مع المعذبين ويموت جوعاً مع الجياع، ومن هنا تأتي علاقته بالوطنية، لأنّ الشعور الوطني لو دققنا شعور إنساني يتألم فيه الفرد كمواطنية المسلوبي الحقوق، والشعر بسبب كونه انفعالاً يتدفق ثائراً على الظلم، والطغيان، والإذلال، والشرّ تدفقاً طبيعياً، ولا يستطيع الكاتب الحق أنْ يسكتَ على غمط الحقوق والعدوان، وإنّما هو فراشة لا تعيش إلاّ في المجتمع المتآخي الحر من القهر والكبت[2].

ومما ذهبت إليه نازك الملائك نستنتجُ أنّ مفهوم الوطن في كتابات الموفق ما دام يعي دوره في المجتمع، لا يعني بأية حالٍ إنّه أدب خطابي كما قد يتوقعُ القارئ أو إنّه عبارة عن موقف يتعلّق بحدثٍ سياسي سرعان ما يتبدد، بل الأقربُ أنّ الاتجاه الوطني هو أحد أسس التجربة السردية عموماً، فحركةُ العمل الأدبي الداخلية هي قبل كلّ شيءٍ تضخيمٌ للمادة الحياتية، وليست تطوراً ذاتياً للفكرة الفنية، وهذه المادة أحد المَشاهد اليومية التي لا يمكنُ للموفق أنْ يبتعدَ عنها أو يتحلّل منها .ومن المهم أيضاً الإشارة إلى أنّ حركةَ المجتمع لا تنفصل عن نظيرتها السياسية، إنّ لحمةً واحدةً تجمعُ بينهما، وهي المجتمعُ نفسُهُ الذي تسري وتتمظهرُ فيه الحركة، ولذلك، فإنّ الكاتب المعبّر عن هذا الواقع وحركته في المجتمع، لا بدّ وأنْ يكونَ ذا موقفٍ وطني، لأنّ تجريدَه من انتمائِهِ الوطني وفكرتِهِ يفرّغُ التجربةَ من محتواها، ويحد من أبعادِهَا ويسمُهَا بالسطحية ويميّعها.

المصطلح:

يجب التفريق بين المفهوم الحالي للوطن الذي يعبر عن توافر مجموعة من مكونات تجمع سكاني من أبنية وخدمات، ومرافق وإدارة ووسائل مواصلات واتصالات وغيرها من المقومات، وبين الدولة، Policy: المفهوم الأوسع التي تعني نظام الحكم لحيز مكاني محيطي يتراوح بين الريف المحيط، والسيطرة على عدة أقاليم، وصولاً إلى السيطرة على إمبراطورية

2-ينظر: سلوى سامي الملا، الإبداع والتوتر النفسي، ص:27.

مترامية؛ وقد حدد أرسطو شروط قيام الدولة في إطار الإمبراطورية، بتوافر قيم خاصة، ونوع من المؤسسات الضرورية ونشاط اقتصادي لسبل العيش، وقوة عسكرية للدفاع عن النفس؛ فكانت لكلّ دولة دساتيرها وقوانينها وآلهتها الوطن هو الانتماء وهو الفداء وهو الحصن الدافئ الذي يلجأ إليه الإنسان متى ضاقت عليه أوطان الآخرين.

منهج البحث:

من المهم التركيز على هذا الجانب، فالمنهج أداة الباحث للوصل إلى الحقيقة المجردة، ولا شك أن الاستقراء وما يرافقه من تحليل سيخدم هذه القضية بطريقة مميزة.

تحليل:

لاشك لدينا من أن الوطن هو مأوى الإنسان مهما طالت به رحلات الغربة، ولأنه الملاذ الأول والأخير؛ كان عند الموفق موطن الألم والعذاب وحتى التنكيل، لقد عاد بطل الرواية إلى وطنه كي يجده غير ذلك الذي عرفه في سني الطفولة، إنه يعود ليجد الألم يتسور المكان والزمان والأشخاص، لقد ساقنا الموفق نحو الجرح النازف الجرح الذي يرى هنا وهناك دون أن يجد من يوقف نزفه، أو حتى ينظر إليه بعين التحسر والانزعاج.

تدور أحداث الرواية وكما حددها الكاتب بداية من عام 2019م، ليروي لنا أحداثاً مؤلمة عشناها في ليبيا طيلة عامين من التهجير والقتل والحرق، فالبطل الذي يقرر فجأة العودة إلى الوطن حالماً أن يكون فيه مواطناً حراً ومستقلاً، يفاجئه الوطن بأن لن يكون لا حراً ولا مستقلاً، وعلى الرغم من اعتراض الأقدار على تلك العودة إلا أنه قرر العودة مهما كانت الوسائل والطرائق.

لا شكّ أنّ الموضوعَ–موضوع الوطن–قد شغل حيزاً مهماً في الرواية المعاصرة، إذ لا تخلو التجربة الإبداعية لأي كاتب ليبي أو عربي من تلك التي تناولت مشكلة الحرية عبر تجليات الألم والقهر، في السجون، في الحصار الخانق، والمنافي في الأقبية المجهولة، والصحارى البعيدة المنسية، في التشويه الجسدي، والموت استشهاداً، وفي الهجرة داخل الذات وخارج الوطن. وفي العزلة الإجبارية عن الحرية وممارسة الحياة في حدودها الدنيا، ففي الوطن على وجه الخصوص "يتعرّى وجه الحاكم المستبد، وتنجلّي حقيقته القمعية الناتجة من صنع أشكال من التمويه الإيديولوجي يعتمدها لاستمداد المشروعية، ويتوسلُ بها لتغليف العنف الذي يندسُ في مفاصل الكلامِ، أو في تمفصلات البناءِ ونقطِ التعالقِ"[3]، وهذا ما يجعل الموفق ليس

3–وفيق سليطين، سردية التسلط وتفكيك آليات الخطاب القمعي، ص: 4.

على وفاقٍ مع الواقع عموماً، لكنْ ليس لأسباب ذاتية مكانية، بل من أجل أسباب سياسية واضحة، أو بعبارة أخرى ليس مرفوض لذاته، بل نفوراً منه؛ لأنّه يغيّب الإنسان بوصفه قيمة عليا وحرة، وأيضاً نتيجة ما يشيعُ فيه من ظلمٍ، وقهرٍ، واضطهادٍ، وتخلّفٍ كيفما كان نوعه.

تتكون الأحداث الأولى للرواية في موظف يعمل في دولة خليجية، وهو أول الألم، فما الذي يجعل من مواطن ليبي يعمل خارج بلاده؟ يقرر العودة إلى الوطن مع بروز أحداث متنوعة كانت تعطيه إشارات وإيماءات بأن العودة مرفوضة، وكأننا أمام إحدى ميثولوجيا اليونان التي تعرف المستقبل وما سيحدث فيه، ولكنه يصر على أن ما حدث وما سيحدث لا علاقة للقدر به، وإنما يبقى المسؤول عنه هو الوطن أو البلد أو أي شيء آخر إلا القدر، يقول:

قبل أن أدخل في التفاصيل أود أن أشير هنا إلى الأحداث التي قادت إلى هذا المصير، وأريد أن أعفي القدر من أية شبهة أو تهمة قد تشير إليه في أن يكون سببا في محنتي، حتى وإن فهم غير ذلك بسبب سياق السرد الذي ربما اقتضته ضرورة ما لتقريب وجهة نظر أنا مسئول عنها، فبالنسبة لي يبقى الله منزها ولا أعتقد أبدا أنه يسمح لنفسه أن يكون شريكا في مهزلة بشرية. وإن وجد أي لبس خلال السرد فالقصد منه طرح سؤال وتشكيك في الرواية.

فالحياة رواية عظيمة، وأنا إذ كنت أنوي أن أدين أحدا، فأنا أريد أن أدين بلدي .

هذا التقديم مهم، وهو إشارة أخرى إلى الواقع المأزوم الذي يدفع الكاتب لأن يبرر ما يكتب كي لا يقع تحت طائلة الألم مجدداً، وهو سبق في مجاله الروائي، ولكي يخلي الكاتب مسؤولياته تماماً أمام أي أمر متوقع أو قد يقع يبادر بالتخلي عما سيقول.

منذ البداية تتوالى الآلام على بطل الرواية الذي يصل به الحال إلى مغادرة وطنه بحثاً عن الكرامة المفقودة في وطنه، بل في "عالم مقفر، تراجعت فيه المثل الروحية، وافتُقِدَت أواصر الحبّ الإنساني الذي يتشوف إليه، فعانى من الظروف السياسية والاجتماعية أيّما معاناة"[4] إنه لا يبحث عن لقمة العيش، إنه يبحث عن إنسانيته التي هدمها الإنسان في وطنه، ولعل من حقنا التساؤل عن صحة تلك المقولة التي مفادها: إن الفقر في الوطن غربة، وليكن غربة ووطن، وليبحث الإنسان عن كرامته خارج وطنه، وليكن ما يكن.

4-منصور، مقدمات في تجربة المدينة عند أدونيس، مجلة الثقافة العربية الليبية، العدد: الثالث 1975م، ص: 19.

بهذا المنطق يغرق بطل الرواية في الألم، ألم الغربة وألم الوطن، إنه يحاول أن يكون إنساناً فللعمل "الإبداعي عاملان: خارجي متمثل في موضوع خارج الذات، وداخلي متمثل في موقف الذات من هذا الموضوع! أمّا العمل الفني نفسه فهو حصيلة المعالجات والتأثيرات المتبادلة بين هذين العنصرين. وهو الصياغة النهائية والشكل الأخير لاتفاق هذين الشريكين على الصياغة النهائية للمولود الإبداعي وهكذا، فإنّ بين الذات والموضوع، علاقة جدلية قسرية لا بدّ منها لإتمام المهمة الإبداعية. حيث يؤثر كلّ منهما على الآخر بشكل متبادل، ويترك تأثيراً ما فيه"5 ويختلف هذا التأثير وفق الأحوال التي تدفع الكاتب نحو هذا الاتجاه دون غيره.

(يدفع لهم بالدولار، من نفط هذا البلد، هل رأيتم شعبا كهذا يدفع من ماله لمرتزقة أغراب لأجل قتل ابنائه. أليس هذا عملا وطنيا؟ غنوا لأجل أعمالكم، خلدوها في التاريخ) ص:53

(هل كنت خائفا؟ لا طبعا.. لكني أردت أن أكتب هذا قبل أن أموت، منحوني فرصة أن أعيش انتقامي بطريقتي، الكتابة، الانتقام بالسمو، من الوطن كله). ص:59

أنظر إلي صورتهما معا وأبكي، فجع أبي بي ومات، غابت أمي نور البيت، فانطفأ هو الآخر في مشهد دراماتيكي، كان هو من حرضني على الخروج من البلد" ليبيا لم تعد وطنا صالحا للحياة، اخرج ولا تعد هنا قبل أن يكون هناك قانون، وها أنا أعود، قبل أن يعود القانون، لأفجعه ص: 62

هذا الجزء بالذات يمثل الأزمة بكل تفاصيلها المؤلمة والمحزنة، هنا تتصاعد أنات المواطن وأنات الوطن المكلوم، الذي يتجسد في الطلب بالخروج والهجرة من وطن لم يعد مأوى يجد فيه الإنسان الحماية والرعاية والأمن والأمان.

إن المأساة ترسم أمامنا صورة المواطن الذي لم يجد بداً من الهجرة والرحيل عن أحبته، عن أمه وأبيه، ليبحث عن أمان وكرامة في أوطان الآخرين، فـ((هو غريبٌ عن كليهما–الزمان والمكان– ويتعاملُ معهما حسب إحساسِهِ المشبع بالسوداوية وفقدان الأمل، فالزمان عنده طويل أو قصير حسب مرجعيته النفسية في الذات، كذلك، فإنّ المكان ضيق أو متسع، حسب تلك المرجعية أيضاً، وعلى أيّ حال، فإنّ الطول والقصر والضيق، والاتساع عنده تشكِّل بدلالاتها الجغرافية حالة إرباك له، فلا الاتساع محمود، ولا الضيق محمود، ولا الطول بنافع، ولا القصر ذو

5–سليمان الأزرعي، تحديات الفكر والثقافة العربية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1998م، ص:213.

جدوى، حتّى الطبيعة بفطريتها وبراءتها لا تشبعُ ذاته"[6]، ولكنه في لحظة أشبه ما تكون بالسوريالية يعود، ليجد هذا الوطن غير الوطن، والناس غير الناس، كل شيء لم يعد كما كان، الخوف والرعب والقتل، لقد ساد المكان صنوف الشر، ومعاول الهدم.

يقول:

كانت حفلة اغتصاب، أتذكر ما كنت عليه، مهانا وذليلا ومغتصبا، منتهكا بقوة الجماعة التي كانت إرادتها انتهاكي ومن ثم إلحاق العار بي، لقد بكيت وهذا كان بسبب ظهور أمي في تلك اللحظة، وهو تداع افضت إليه صور أنتجتها المخيلة كوسيلة للمقاومة، من السخرية أن أتذكر أن أحدهم قال:

_ ابك مثل فتاة. ص: 7.

تعرض بطل الرواية وفي اثناء عودته إلى وطنه إلى مراحل متسلسلة من الألم، وكأنه أراد أن يقول لنا: إنها رحلة عذاب مستمرة ومستقرة، أشدها وأفظعها الانتهاك الجسدي الذي تعرض له على يد مهاجر أفريقي، زيادة في تقريب مراحل الألم التي يقدمها أبناء الوطن لمواطنيهم، فالمأساة الحاضرة هاهنا تذكي مشاعر الاشمئزاز والنفور من واقع مرير، لم تفعله حتى قوات الاحتلال الغازية للوطن. سيكون الاغتصاب كارثة على المجتمع، وسيكون ممن كسرت نفسيتهم وكثرة الأزمات النفسية التي تبرز على شكل إظهار العواطف بشكل مبالغ فيه.

عبر سلسلة من التوقع عشت ألمي وعاري قبل وقوعه، قبل قليل كنت أقول " تهيأت" سأتوقف عند هذه الكلمة، ما معنى أن تتهيأ وأنت لا تملك أي وسيلة للمواجهة، يقال "على المرء أن يخترع أداواته"

في تلك اللحظة، ابتسمت ساخراً من الأدوات وقدرة المرء على اختراع وسائله، لاحظ ولد ابتسامتي. لابد هنا من الإشارة إلى أني عاجز كلياً عن مجاراتهم في السخرية، هؤلاء الشبان خلقوا ليسخروا ويعربدوا، وكما نقول" كلمته على رأس لسانه" ناهيك عن أني لست في وضع يؤهلني لمجاراة سخريتهم، سألني

" لم هذه الابتسامة الصفراء يا بطل؟" ومضى، من بعيد كنت أسمع أصوات قصف.

6-رامز رمضان النوصيري، الاندهاش والمراوغة، قراءات في النص الليبي، مجلس الثقافة العام، سرت ليبيا الطبعة: الأولى 2006م، ص: 82.

قبيل وقوع الحدث الكبير، يبتسم (منير) بطل الرواية وهو يشاهد أبناء وطنه وقد استعدوا لاستقباله بعد رحلة سفر طويلة، إنه مهيأ الآن لتلقي أي شيء، إنه يجد وطنه تغير وتبدل، إنه يحقد على أبنائه الذين لم يؤذوه ويدمروه، لقد أصبحت الأحداث تسير وبشكل لافت نحو الحدث الفاصل في الرواية، وهو ما سيغير الأحداث ونصبح أمام تراجيديا مؤلة ومحزنة، فالجرم الذي يمهد له هؤلاء لم يأت بعد، فكل ما حدث هو مجرد مقدمات لما سيأتي.

اقترب آخر مني" أنت فقط غيرت صوتك، وهذه مهارة أحسدك عليها" بدا الجو مثاليا للسخرية، وأنا الوضيع بينهم.

سألت" لماذا أغير صوتي، هذا ليس أنا "جديتي لم تثر فيهم إلا الحماس لسخرية أعلى.

التفوا حولي وطلب شخص ينادونه بـ (العفنة) " سنسهل عليك الأمر، قلد لنا صوت الحمار" رفضت، فجلدني أحدهم بأنبوب الببي آر،" هيا انهق"

لم استجب، فأنهالوا علي بالركل" ستنهق مثل حمار" قال العفنة. رأيت في عيون المحيطين بي لهفة أنا عاجز عن وصفها.

" لا..لن انهق" الضربات التي تلقيتها على ظهري، وعلى ضلوعي، شعرت بأحد الضلوع ينكسر، رفسني أحدهم على وجهي.

" انهق" قال

بدأت انهق، توقفوا عن الضرب، وهدأوا، ثم طلبوا أن أنبح، نبحت، طلبوا أقاقيء ، قأقأت، قل إنك [7]...." وقلت إني كذلك.

خطر لأحدهم أن يطلب مني أن أقلد صوت الديك الرومي، أنا لم أسمع صوت هذا الديك من قبل، قلت" لا أعرف" مع موجات الضحك والسخرية، انهالوا علي بالرفس. لعبوا بي، وتفننوا قبل أن يبدأ مرحهم الكبير.

فيما كانوا يتسلون بي ويتنافسون في تعليقاتهم الساخرة، دخل فجأة وعم المكان صمت، رجل قصير يرافقه كلب بيتبول ضخم، وطلب منهم " انقلوه إلى غوانتاناموا.

يرتبط الوطن في المقطع السابق بـ"فاجعة الانفصال، وتنمو من خلال هذه الخلفية النفسية (أنا) مَنْ حملتْ فاجعة التراب الخصب و(الأنا) المتفجعة"[8] تعكس طبيعة الصلة بين بطل

7 لابد من الإشارة هنا إلى أن الكاتب قد أدرج بعض الكلمات التي يراها ضرورة سردية، ومهمة روائية، ونحن في هذا البحث قمنا بحذفها، كونها تمثل إشكالية معينة، والقارئ الحذق سيستطيع فهم المحذوف، فلم تره مؤثراً في أحداث الرواية.

الرواية والوطن، إذ هي امتداده ووجوده، وبالرغم من الانفصال الواقعي، فإنّها في جسده تتحول من وجودها في الخارج إلى وجود داخلي، وهذه العلاقة تفتح نصوص الرواية على كلّ التحولات الممكنة، إذ ارتبطت بالمفهوم المتأوه، واتخذت بعداً إنسانياً اتسع ليشمل قضايا الوطن، وتمزّج الشعر بالسياسة والخاص بالعام، بحيث أصبحت لغة الظلم عنده مرجعاً هاماً بين العلامات المكانية. حكاية الوطن، جزء لا يتجزأ من سيرة بطل الرواية والمجتمع والعالم، إنّها حالة تعكس الجنون بالتراب وتؤطر الوجود في المكان، وهي الوجه الآخر لمعركة الإنسان في الوجود، ولذلك، فلن يكون استثنائياً أن يتمثّل هذا المقطع بالذات الرواية، ويستحضر عناصرها في كلّ المواقف والمراحل.

جروني، إلى غرفة، بدت معدة للتعذيب، أجلسوني على كرسي وقابلني القصير على الطرف الآخر من الطاولة، الذي بدا كأنه استيقظ للتو من النوم، تفوح منه رائحة عطر بلو" شانيل"

سألهم وهو يلاعب رأس كلبه " ماذا وجدتم لديه؟" وضعوا أمامه جواز سفري، ومئتي دولار هي كل ما أملك من مال وهاتفي، أمسك بجواز سفري، و طلب مني بهدوء" ما هي كلمة السر"

قلت له" 1234"

ضحك من الرقم وقال:" أنت تجعل الأمر سهلا"

فتش الموبايل، لم يجد شيئا " يقولون أنك جئت من تونس، وأنك لست الذي بالفيديو"

قلت " أجل"وأضفت" كنت مقيماً بالخليج" قلب الجواز للحظات، ثم قال" آخر مغادرة للبلد كانت في يونيو2014"

قلت" هذا صحيح" بدأ هادئا و قال " أين ختم الخروج من هناك"

قلت" ما عادوا يختمون، هناك بوابة الكترونية " يبدو أنه لم يسمع كلمة بوابة ألكترونية قال" هذا يعني أنك لازلت هناك، وأنك لازلت في تونس أيضا، فأنت دخلتها في مارس2020" وقف وقال " هل تستخف بي؟"

أمسك البسبور ورماه في وجهي، عندما حاولت أن أمضي في مرافعتي، نهرني وأرخى حبل كلبه، زمجر الكلب وقفز تجاهي، وكاد ينهش وجهي، لو لم يشد الحبل." لدينا وقت طويل، ولدينا وسائل تؤدب أمثالك" قال

7-السيد علي شيّا، نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع، ص:76.

أراد أحد الشبان ان يتدخل، فأشار له بيده أن يصمت وقال لهم" أين العبد" وأشعل سيجارة، صرخ مرة أخرى" نادوا ليو"

جاء شاب أفريقي مسرعا، " أخلعوا سرواله" قال أمرا الفتية، بدا مبتهجاً،

رجوتهم ألا يفعلوا هذا، ما حدث بعد هذا كان مروعاً.

تتعاقد سلسلة من العذاب والألم الذي يقدمه الموفق ليميز مرحلة مهمة من مراحل الشعب الليبي، فبطل الرواية يمثل بحق الإنسان الليبي الذي تنهك كرامته كل يوم، لا لشيء، بل بسبب الجهل الذي يموج هنا وهناك، ونحن نقرأ المقطع السابق، تتعالى أصواتنا بكلمة توقف، ولا تفعل، إننا نجد أنفسنا نتوسل بكل شيء بأن تتوقف هذه الجريمة، فالإنسان الذي يجد المتعة في تعذيب غيره يعاني من عقد، ولكن ماذا إذا كانت تلك العقد تمثل الوعي الجمعي الكامل لمجموعة كاملة من البشر، ولكن لماذا يفعل هؤلاء هذه الممارسات التي قد تبدو غريبة جداً، تعتمد "الإجابة اعتماداً كبيراً بالرجوع إلى الفرد. إن الأخذ بدور الامتثال أو العجز بالنسبة للبعض يقدمُ شكلاً من أشكالِ الهروب العلاجي من ضغوط الحياة أو المسؤولية أو من الشعور بالذنب. أما بالنسبة للآخرين، فإن الوقوع تحت سلطة ووجود جهة قوية ومسيطرة عليه قد تُثير مشاعر السلامة والحماية المرتبطة بمرحلة الطفولة، "غير أنّ فرويد يرى أنّ هذا الصدامَ وسيلةٌ من وسائل إشباع الرغباتِ التي قد تكون عَصِيّة التّحقيق في الواقع، ولكنّه عدّل من هذه الفكرة حين اكتشفَ ما يُسمّى بحالات (عُصاب الصّدمة)، وهي الحالات المؤلمة التي تعتري المريض، فيعودُ في موقف ما إلى تذكّر المشهد المؤلم الذي حدث له في الواقع"[9] فهم أيضاً قد يستمدون الرضا من الحصول على الموافقة. وبالنظر للأمر من ناحية أخرى، فإن ممارس السادية قد يعطي شعور التمتع بالسلطة، والسلطة التي تأتي من لعب الدور المسيطر والمهيمن، أو قد يستجلب السادي المتعة استجلاباً غير مباشر من المعاناة التي تقع على الشخص"[10] الآخر.

8-فرويد، الموجز في التحليل النفسي، ترجمة: سامي محمود علي، وعبد السلام القفاش، دار المعارف القاهرة، الطبعة: الثانية، 1970م، ص: 98-99.

[10]ttps://areq.net/m/%D8%B3%D8%A7%D8%AF%D9%8A%D8%A9_%D9%85%D8%A7%D8%B2%D9%88%D8%AE%D9%8A%D8%A9.html

سحبوا سروالي وكشفوا عن عورتي، اطفأوا سجائرهم على جسدي، أدخلوا خشم البندقية في .... [11]،، ثم أمرهم " احضروا عبدين أخرين" وأمرهم أن يتبادلوني واحداً بعد الآخر، ثم أمر أحدهم أن يوثق الحالة (سأعود له في وقت آخر)، أخيرا انتهوا مني وعافوني، رفسوني بأقدامهم، ثم بدأت حفلة تعذيب جسدي، بماسورة خضراء (بي بي آر) جلدوني على ظهري، كان ظهري يطقطق تحت ضربات الماسورة، بولاعاتهم أسالوا أكياس الناليون على جسدي، أدخلوا الماسورة الخضراء ...، .... علي.

سأتوقف هنا عند أمنية صغيرة لضرورتها؛ لأنها أمنية كان من حقي أن أراها تتحقق، تمنيت أن أموت لما بدأت شعائرهم، لم أمت، لم تداهمني حتى تلك النوبة اللعينة، أليس هذا وقتها؟، لقد خذلتني حين أردتها، لم تكن ضمن خطط القدر.

أريد لي أن أعيش المهانة، وما من قوة كانت ستمنع هذا الحدث، كل القوى كانت ضدي. حتى الموت ذهب يؤدي مهاما أخرى أجل شأنا مني.

تتلاحق الصور القاتمة والموحشة، وتتلاحق معها أيضا الممارسات الشاذة والسادية في المتعة في التعذيب لأبناء الوطن، بواسطة الأجنبي، فحضور (ليون) ليمارس أداة التعذيب وليمتع غيره بالمشاهدة، أمر له ترميزة قصدها الكاتب دون شك، أليس من حق (منير) هنا أن يتمنى الموت، ولكنه لم يكن حاضراً، فتجسيد الموت وهو يؤدي مهام أخرى في جبهات القتال التي تدور حول طرابلس، جعله يفكر أن هذا الموت لن يأتي إليه أبدا، إنه مشغول بمهام أكبر منه، إنه يحصد المئات هناك.

لنستعد المشهد مرة أخرى، لا واحد منكم يخطر بباله أن يسأل أين كان الله؟ لكني لم أسأل، لقد تجاهلني تماماً، وتركني لهؤلاء، ها قد بدأت أضيء، ألمع، أشرق، أبرق، وسط العار الإنساني، وحدي بين الحشد والعار، وحدي الذي كان باستطاعته أن يضفي جمالاً خلاباً على روحه وهي تنتهك، أنا من كان الإله بينهم، إن كان للذل أن يتجسد فقد كنته، في أجل تجل، "حرام" سيقول متعاطف ما، حرام، ولا أي كلمة في هذه الحياة باستطاعتها أن تحمل عزائها إلا كلمة واحدة، "الهزء"، باقة تقدم لروحي، لقد رفعت رأسي عالياً، وهو كان محنياً مثل عنق بجعة ميتة، وتذكرت عنق الحمامة المتدلي، الصور تتداعى لوحدها، الحمامة، رحاب، صابر، سوسن، كلهم تنبأوا بما سيحدث لي. حتى الله بعث رسالته عبر حلم الحمامة التي أكلتها الكلاب، والتي نهشتني، أنا لم أصغ، حتى الوباء لم يمنعني،

يا أولاد .... ماذا بعد؟" تحدث دانتي عن الجحيم، بدا لي ساذجاً ومحدود الخيال، إن الأقرب إلى قلبي الآن هو سارتر " الآخرون هم الجحيم" الآخرون وأنتم، وهذا السرد القاسي، يؤسفني أني أقدمه لكم بكل ما أتويت من معرفة عن الجمال، جمال الهزء. ص: 51

يستمر النزف القاتل مع بطل الرواية وهو يشاهد متعة معذبيه وسالبي حقوقه، وهم يفرحون وينتشون بما يفعلوه، وفي مثل هذه الحالات يبحث المظلوم عن قوة أخرى تنجيه من هؤلاء وترفع عنه سخطهم وبغيهم وطغيانهم، وهو يسأل: أين الله؟ وهو سؤال جره قسوة التنكيل، فـ " كل الحقوق وعلى الجميع. أين المتوحشون إذن، يتساءل أين البربرية؟ فليرحل العبيد أو فلنحررهم"[12] فعندما يصل الإنسان إلى مرحلة معينة ويصبح الواقع ليس كوميديا الإلهية كما هي عندنا دانتي البوجيري، بل هي الطريق إلى الجحيم أو الآخرون هم جهنم كما عند سارتر.

إننا هنا لا نقدم عذرا للكاتب، ولا نلتمس له مخرجاً، بل الحق إننا بتنا نشاركه المأساة التي لا تطاق ولا تحتمل، لقد تجاوزت قدرة البشر في التحمل والصبر، ألسنا نذكر قصة الصحابي الجليل عمار بن ياسر، الذي تعرض للتعذيب من ظلمة قريش، لا لشيء إلا أنه اختار الحق وأتباعه، ورفض الظلم وأهله.

لقد أدخلنا الكاتب في ردهات السجن لنشاهد ما يحدث فيه، لقد نقله من حالته المغلقة والمحكمة إلى حالة من المشاهدة العامة أو الممسرحة-إن صح الوصف-فـ"محو الحدود المكانية والمكونات المقياسية الهندسية في المكان مع الانفتاح اللا نهائي للفضاء المكاني على كلّ مقدرات التخيل الممكنة والمستحيلة التي يدفعها المبدع ليركبها النص خجولاً متردداً في أحيانٍ قليلة، وصارخاً حاداً في أحيان كثيرة. وذلك ما يمثّل تجليات شتّى لظاهرة واحدة هي روح العصر المبنية على شروط البيئة الجغرافية والطبيعية"[13]، فالمشاهد المتوالية لحالات القمع والتعذيب وهي لا تنفك تطيح بكرامة الإنسان بكل قوة ودون رحمة ودون لين، ودون استماع أصلاً، بل جعل من مراحل التعذيب متعة لم يشعر بها إلا هؤلاء الذين هم أهل جهنم، أو القائمين على التعذيب فيها.

سنكون واقعيين في قراءة أزمة الوطن عند الكاتب، ولن نبرر لأنفسنا خروجاً عما هو مؤلوف، فالحالات التعذيبية الإجرامية تكفي لصنع أي شخصية، مجرم، مريض، متطرف، متى كانت هذه الوسيلة هي الطريق المضمون لدفع الظلم وأهله.

10-صلاح الدوادي، في سارترية المقاومة، الحوار المتمدن، ع 2771، 2009م.

11-صلاح صالح، قضايا المكان، ص: 67.

لو قتلوني، لو انتحرت، لما كتبت هذا، هذا الكتاب يضيء بالعار.

بثوا الفيديو بين الناس و حلقت فضيحتي، عالية ومدوية، حين أنهى الفتى بث الفيديو، رموني في الحمام، وضع الموبايل أمام عيني وقال" تفرج على ذُلك" أشهر فتى آخر سلاحه ووضع فوهة بندقيته بين حاجبي. نهره الكبير، الرجل الفهيم" لا تقتلوه، نريد أن يعيش ذله كل يوم"

هل كنت خائفاً؟ لا طبعاً.. لكني أردت أن أكتب هذا قبل أن أموت، منحوني فرصة أن أعيش انتقامي بطريقتي، الكتابة، الانتقام بالسمو، من الوطن كله.

بهذه المشاهد تنتهي حكاية العذاب والوطن، وبهذه المأساوية تتجلى منابع الظلم في الوطن، أليس من الممكن أن يموت (منير) كي لا يرى مأساته ويراها ويشاهدها الآخرون؟ لكنه عاش لتكون تلك المأساة حكاية في أزمنة وطن مزقه أبناؤه وعاثوا فيه تخريباً وتدميراً.

تركيب:

1-يشكّل نقطة تحول كبرى في كتابات جمعة الموفق.

2-الوطن عند الكاتب لم يعد ذلك المكان الأليف المحبوب.

3-الرواية بنت أحداثها على واقعية قصدها الكاتب وأكد عليها.

4-تشكل السادية صفة بارزة لشخوص الرواية مهما اختلفت أماكن وجودهم.

5-ليس أبطال الرواية شخصيات ورقية فحسب، بل هي مشاهدة ومرئية بكل وضوح وتفصيل،

6-حول الموفق السجن والمعتقل من مكان مغلق إلى مسرح كبير، يشاهده الشعب والعالم؛ ليفق على عمق المأساة والقهر.

7-خشية الكاتب من بعض المحظورات في المجتمع، جعلته يقدم الاعتذار في الرواية نفسها، فهو كما بطل الرواية يخشى ويخاف

ملحق التعريف بالكاتب:

جمعة عبدالله الموفق ولد في ليبيا بمدينة ترهونة، في 1969م. مقيم حالياً بدولة الإمارات العربية المتحدة. تخرج من معهد أحمد النائب للمعلمين 1988م. عمل بالتدريس حتى العام 2000م. بدأ الكتابة متأخراً، ونشر نتاجه الشعري من خلال المواقع الثقافية والأدبية على الإنترنت. أصدر ديوان: مأدبة لبكاء مرّ، عن دار روافد عام 2017م،

https://tieob.com/archives/author/jumaalmwaffak